المحاضرة التاسعة حسن التخلص

تمهيد هو الانتقال من غرض في القصيدة إلى غرض آخر فيها، كأن يخرج الشاعر مثلا من النسيب الذي بدأ به إلى المديح أو غيره، بلطف مع رعاية الملاءمة بينهما، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني، لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتى كأنما أفرغا في قالب واحد"[1].

وقد أوجبوا في حسن التخلص أبعادا نفسية وفنية، منها: الترفق في الانتقال، والعناية بمطلع الغرض الجديد. ويقصد بالترفق في الانتقال النقلة الهادئة من المقدمة إلى الغرض التالي في القصيدة، فذهبوا إلى أن على الشاعر أن يكون بارعا في هذا الانتقال، لطيفا منسجما لا طفرة فيه[2]. يقول ابن الأثير: "والذي يحافظ على وحدة النص وتماسكه وعدم إشعار المتلقي بوجود فجوة فيه، إنما هو الاتصال المعنوي بين أجزاء النص، في مواضع الانتقال، والخروج من الأبيات أو الفقرات اللاحقة والسابقة، وليس الاتصال اللفظي الشكلي"[3].

ولكي يحافظ الشاعر في تخلصه الرفيق على تماسك النص، والنقلة الهادئة فإنه يحتال في ذلك. ومن طرقهم أن يجعل الشاعر معنى البيت السابق سببا لمعنى البيت اللاحق. وقد يعتمد الشعراء الاستطراد كحيلة قائمة على التمويه والإبهام، ويؤكد ابن رشيق هذه الوحدة بين الغرضين بقوله: "ومن حكم النسيب الذي يفتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم، متصلا به غير منفصل عنه، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض"[4].

وجاء في المعجم المفصل في الأدب لمحمد التونجي ص365 : "حسن التخلص هو الانتقال مما ابتدئ به الكلام إلى الغرض المقصود برابطة تجعل المعاني آخذا بعضها برقاب بعض بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من نسيب إلى مديح أو غيره. وحسن التخلص مقدرة لا يؤتاها كل شاعر، وميزة يختص بها الشعراء الأوائل، لأنهم يسعون إلى عدم قطع صلة الحديث"[5]. فانظر إلى قول .....

---

[1]– العمدة 156/1.

[2]– المرزباني 54. وابن سنان 259. وحازم 321. وابن الأثير121/3. عن: محمد عزام 141.

[3]– ابن الأثير، ص121/3. عن محمد عزام: ص141.

[4]– ابن رشيق: العمدة، ج2، ص94.

[5]– محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، ص 365.

وجاء في المعجم نفسه ص180، في مصطلح براعة التخلص :"هي أن يحسن الشاعر أو الكاتب الانتقال من موضوع إلى موضوع. وهي صفة حسنة في الشعر، وتسمى حسن التخلص وحسن الانتقال... وكان الشعراء يكتفون بقولهم (عُدْ عن ذا) أو (دَعْ ذا) أو (عُدْ عن ذا) كما في قول زهير وقد فقد الأمل بلقاء الأحبة وعلم أن فراقهم أمر مؤكد عندما سمع نعيق غراب البين، فقال:

فعد عما ترى إذ فات مطلبه أمسى بذاك غراب البين قد نعقا[1]

فقد انتقل من الغزل إلى غرضه المقصود بقوله: "عُدْ عما ترى".

والأعشى من الشعراء الجاهليين الذين برعوا في التخلص من موضوع والانتقال إلى آخر. فحينما أراد الانتقال من مديح الأسود بن منذر ذكر أن الناقة خاطبته وشكت له هزالها وتعبها، فأجابها:

لا تشتكي إليّ وانتجعي الأسـ ـود أهل الندى وأهل الفعال[2]

ومن أمثلته قول أبي نواس يمدح الخصيب

تقول التي من بيتها خف مركبي عزيز علينا أن ن ا رك تساير

أما دون مصر للغنى متطلب بلى إن أسباب الغنى لكثير

فقلت لها و استعجلتها بوادر جرت فجرى في إثرهن عبير

ذريني أكثّر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير

إذا لم تزر أرض الخصيبِ ركابنا فأيَّ فتى بعد الخصيب تزور

فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

فتى يشتري حسن الثناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور

ولم تر عيني سؤددا مثل سؤدد يحل أبو نصر بـه ويسير

وإني جدير إذ بلغتك بالمنى وأنت بما أملت منك جدير

فإن تولني منك الجميل فأهلـه وإلا فإني عاذر وشكور

نلاحظ أن الشاعر انتقل بطريقة رشيقة سريعة من الغزل والنسيب إلى المديح في بيت شعري واحد وهو البيت الرابع:

ذريني أكثر حاسديك برحالة إلى بلد فيه الخصيب أمير

---

[1]- ديوان زهير بن أبي سلمى، ص 69.

[2]– السابق، ص 180.

ومن حسن التخالص أيضًا قول البحتري في مدح المتوكل:

كأنها حين لجت في تدفقها * يد الخليفة لما سال واديها

وقد انتقل من وصف البركة إلى المدح انتقالًا حسنًا متلائمًا، حيث شبه تدفق مياهها وسيلانه بتدفق يد الخليفة بالعطاء والبذل.

ملاحظة: ينظر مصطلح التخلص (الكثير من الأمثلة) في: ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، ص111.